صابقة الأدب العربي

٢ ـ البهاء زهير

للدكتور زكي مبارك

مصرية البهاء

يقول الأستاذ مصطفى باشا عبد الرازق إن البهاء لم يكن طفلاً حين هاجرت أسرته من الحجاز إلى وادي النيل ، لأنه وجد في شعره قصيدتين يذكر فيهما عهده بالحجاز ، الأولى قصيدة :

أحنّ إلى عهد المحصَّب من مِنًى
وعيشٍ به كانت ترفّ ظِلالهُ

والثانية قصيدة :

سقى اللهُ أرضاً لستُ أنسى عهودها
ويا طولَ شوقي نحوها وحنيني

ثم يقول بعد إيراد هاتين القصيدتين : « وليست ذكريات طفل هذه الذكريات التي يحنّ البهاء زهير إلى عهدها بين المقام وزمزم ، فلا بد أن يكون شاعرنا جاء إلى قوص فتًى مستكملاً »

وأقول إن القصيدتين تشهدان بأن البهاء كانت له ذكريات غرامية بالحجاز ، فإن صدقناه فيما ادعى لنفسه من الصَّبَوات بالبلاد الحجازية ، فمن حقنا أن نسأل كيف خَبَتْ حرارة الذكريات لتلك الصبوات فلم توح إليه غير قصيدتين اثنتين ؟

والأستاذ مصطفى باشا يحدثنا أن المؤرخين قالوا :

« وانتقل البهاء زهير من قوص بعد أن رُبّي فيها وقرأ الأدب وسمع الحديث وبرع في النظم والنثر والترسل »

ومعنى هذا أن البهاء بدأ حياته في قوص وهو في عهد التربيب ، وأنه لم يجيء إلى قوص وهو فتًى مستكمل الفتوة ، كما حكم سعادة الأستاذ قبل لحظات وهو يدوّن بحثه الطريف

يجب أن نتذكر أن الكلام عن الحجاز وذكرياته الغرامية بدعة أدبية شرعها الشريف الرضي ، وأتبعه فيها من تلاه من الشعراء ، فكان من هوى كل شاعر قضى وقتاً بالحجاز أن يقول إن له حجازيات ، كما كان للشريف حجازيات .

مشكلة لغوية

لغة البهاء زهير لغة شاعر عريق في المصرية ، ولولا إجماع المؤرخين على أنه وُلد بالحجاز لكان من الحتم أن نفترض أنه وُلد في قرية مصرية من قُرى المنوفية ، فكيف نصدّق أن أهله حجازيون ؟

لقد رأينا رجالاً نشأوا بالشام أو لبنان ، ثم هاجروا إلى مصر فعاشوا فيها سنين وسنين ، إلى أن استمصروا بحكم القانون ، ومع هذا بقيت ألسنتهم وأخيلتهم شامية أو لبنانية ، فكيف جاز أن يكون هذا الحجازي أعرق في المصرية باللغة والروح والخيال ؟

أنا أرجح أن تكون أسرة البهاء زهير مصرية لا حجازية ، وإن كانت عربية العِرق ، وأرجح أنها انتقلت من مصر إلى الحجاز للتجارة ، بدليل أنها لم تنتقل من الحجاز إلا إلى قوص ، وكانت مدينة قوص ملتقى القوافل الواردة من الهند والحبشة واليمن والحجاز ، وملتقى الحُجّاج من المغاربة والمصريين

ويمكن أن نقول إن أسرة البهاء هاجرت إلى الحجاز لتنضم إلى جماعة المجاورين ، والمجاور في الاصطلاح القديم هو من يجاور الحرم النبوي ، وبه وُصف المجاور للحرم الأزهري في القاهرة ، أو الحرم الحيدري في النجف . وفي القاهرة مقابر تُسمّى « قرافة المجاورين » من باب التشريف ، فما انحطت كلمة مجاور إلا في عصور الانحطاط

ويرجح هذا القول أن مصطفى باشا رأى في أحد المخطوطات أن والد البهاء وُصف بـ « العارف محمد ، قدّس الله روحه » و « العارف » كلمة لم يكن يُنعَت بها غير الموفين بالتنسك والتصوف

ولا يقدح في هذا القول ما صار إليه البهاء من الإقبال على المناصب الدنيوية ، فالرأي الغالب عند أسلافنا أن طلب الدنيا لا يغض من قيمة التمسك بالدين ، ما دام طالب الدنيا حريصاً على التحلي بمكارم الأخلاق

إن البهاء مصريّ اللغة والروح ، مصري « ابن بلد » بلا جدال ، فكيف نجعله من الحجازيين ؟ وهل ينطبع الرجل على لغة بلد وعلى أوهامه وأحلامه وهو في الأصل غريب ؟

وما هو الروح الحجازى فى أشعار البهاء لو جعلنا أُسرته حجازية الأصل ، وأنها لم تعرف مصر إلا فى أواخر القرن السادس ؟

أنا أقدم هذا السؤال ، وإن كان لا يخلو من ضعف ، لأنى أعتقد أن الحجاز لم تكن له قومية محلية فى العهد الإسلامى ، فقد صار الملتقى لألوان من اللغات والآداب ، منذ اليوم الذى صار فيه ملتقى لألوان من الأمم والشعوب

وجملة القول أنى أرجح أن أسرة البهاء أسرة مصرية أقامت مدة في الحجاز ، ثم رجعت إلى مصر ، ولغة البهاء تؤيد هذا الترجيح ، وقد تظهر فى المستقبل أشياء نعرف بها صدق هذا الترجيح

لو عرف المؤرخون أن هذه القضية ستشغل الباحثين بعد أزمان لحدثونا بالتفصيل عن المنابت الأصيلة لدوحة البهاء

ذاتية البهاء

البهاء زهير ذاتية واضحة جدًّا ، ذاتية نفسية وذاتية فنية . ولننظر هذه الأبيات :

أحبّ من الأشياء ما كان فائقاً ... وما الدُّون إلا من يميل لدون
فأهجرُ شربَ الماء غير مصفّقٍ ... زُلالٍ وأكلَ اللحم غير سمين
وإن قيل لى هذا رخيصٌ تركتهُ ... ولا أرتضى إلا بكل ثمين

فهذه الأبيات ليست من البدائع ، بالقياس إلى ما يتمدح به أكابر الشعراء ، وهى مع ذلك من الطرافة بمكان ، لأنها تصور المصرى المتأنق فى اختيار المطعوم والمشروب والملبوس

ولننظر قوله فى معاتبة الأمير مجد الدين :

فيا تاركى أنوى البعيد من النوى ... إلى أى قوم بعدكم أتيممُ
ألا إن إقليما نَبَتْ بىَ دارُهُ ... وإن كَثُر الإثراء فيه لمعدم
وإن زماناً ألجأتنى صروفُهُ ... لحاولتُ بُعدى عنكمُ لمذمّمُ
وأعلم أنى غالطٌ فى فراقكم ... وأنكمُ فى ذاك مثلى وأعظم
فلا طاب لى عنكم مُقامٌ بموطنٍ ... ولو ضمّنى فيه المَقام وزمزم
ومثلك لا يأسى على فقد كائنٍ ... ولكنه يأسى عليك ويندم
فمن ذا الذى تُدنيه منك وتصطفى ... فيكتُب ما توحى إليه ويكتُم
ومن ذا الذى ترضيك منه فطانةٌ ... تقول فيدرى أو تشير فيفهم
وما كل أزهار الرياض أريجةٌ ... وما كل أطيار الفلا تترنم

فهذا عتاب ترى مثله عند المتنبى والأرّجانى وابن درّاج ، والمعانى فيه مألوفة ، إن لم نقل مطروقة ، ومع ذلك تجد فيها عذوبة بهائية زهيرية تشهد بأنها صادرة من شاعر خفيف الروح ، رقيق الأسلوب

وهل رأيتم فى تصوير « كاتم السر » وهو ما تسميه اليوم بالسكرتير أدق من هذين البيتين :

فمن ذا الذى تدنيه منك وتصطفى ... فيكتُب ما توحى إليه ويكتُم
ومن ذا الذى ترضيك منه فطانةٌ ... تقول فيدرى أو تشير فيفهم

هذا هو « السكرتير » المنشود ، وكذلك كان البهاء

وإيمان البهاء بذاتيته إيمانٌ متين ، فهو يثق بنفسه وبفنه ثقةً بصيرة ، لا ثقةً عمياء ، ومن شواهد ذلك قوله فى مخاطبة أحد الأمراء :

هذا زُهيرك لا زهير مزينةٍ ... وافاكَ هَرماً على علاّتهِ
دَعْه وحولياته ثم استمع ... لزهَير عصرك حسن ليلياته
لو أُنشِدَتْ فى آل جفنة أضربوا ... عن ذكر حسّانٍ وعن جَفَناته

فهل رأيتم قبل البهاء من يعارض الحوليّات بالليليّات ؟ هو شاعر الفطرة والطبع ، فمن حقه أن ينتظر جود الخاطر فى الليلة القصيرة بما لا يتيسر لغيره فى الحول الطويل

ولننظر كيف يتمدح بأخلاقه وأشعاره وهو صادق :

مذ كنت لم تكن الخيانة فى المحبة من خلاقى
ولقد بكيتُ وما بكيتُ من الرياء ولا النفاق
رقيقة الألفاظ تحكى الدمع إلا فى المذاق
لم تدرِ هل نطقت بها الـ أفواهُ أم جَرَت المآقى
لطُفتْ معانيها ورقّتْ والحلاوة فى الرّقاق
مصريةٌ قد زانها لطفاً مجاورة العراق

مصرى ابن بلد

المصريون يسمون الفتى الحلو الفكاهة والدعابة « ابن بلد »

وفى أشعار البهاء كثيرٌ من التعابير البلدية ، وما نظرت فى ديوانه إلا أيقنت أنه « من الناحية بلدنا » وهتفتُ :

يا زرع بلدى عليك يا وعدى

ويضيق المجال عن الإكثار من الشواهد ، والمهمّ هو أن نرشد المتسابقين إلى هذا الجانب ، لأنه سيرِدُ حتماً فى أسئلة الامتحان ، لأهميته فى الدلالة على الألوان المحلية

قال البهاء :

فياصاحبى أما علىّ فلا تَخَفْ
فما يطمع الواشون فى عاشقٍ مثلى

وعبارة « أمّا علىّ فلا تخف » لا تزال على ألسنة المصريين « ما تخافش عَليَّه »

وقال :

أتتْك وَلم تبعُدْ على عاشقٍ مصرُ

وأولاد البلد يقولون : « مصر لا تبعد على حبيب »

وقال :

سيدى قلبىَ عندك سيدى أوحشتَ عبدك

و « قلبى عندك » عبارة بلدية نقولها فى كل يوم ، ومثل عبارة « أوحشت عبدك » فهى تدور على كل لسان ، ومن « أدوار » الغناء عندنا هذا الدور

ياما انت واحشنى وروحى فيك

وقال :

أين مولاى يرانى ودموعى فوق خدى

فى الشطر الثانى عبارة بلدية مألوفة

وقال :

لنا صديقٌ سيئٌ فعلُهُ ليس له فى الناس من حامِد
لو كان فى الدنيا له قيمةٌ بعناه بالناقص والزائد

والمصرى يقول حين يُضجره السوق : « بناقص بزائد سأبيع »

وقال :

سيندم بَعدى من يريد قطيعتى
ويذكر قولى والزمان طويل

والخصم عندنا يقول لخصمه : « أنا وأنت والزمان طويل » .

وقال :

إياكَ يدرى حديثاً بيننا أحدٌ فهم يقولون للحيطان آذانُ

فى هذا البيت عبارتان مصريتان لا تحتاجان إلى بيان .

وقال :

وكانت بيننا طاقٌ فهيا نحن سددناها

فى هذا البيت عباره بلدية صريحة .

وقال :

جاءنى منه سلامٌ سلّم الله عليه
الله يسلّمك .

وقال :

له فصولٌ كلُّها فضولُ

يريد أن يقول إنها « فصول باردة » .

وقال :

حاشاك أن ترضى بأن أموت فى الحب غَلَطْ

كما نقول اليوم : « فلان مخلوق غلط »

وقد أكثر فى شعره من عبارة : « يا ألف مولاى »

ونحن نقول للزائر : « يا ألف مرحب »

وأنا أكتفى بهذه الشواهد ، وأترك للمتسابقين مراجعة نظائرها فى ديوان البهاء

الشاعر العاشق

يظهر أن البهاء زهير فُتن بالجمال فتنةً دامية ، فهو عاشق من الطراز الأول ، ولم يمنعه منصبه فى الدولة ولا مركزه فى المجتمع من إعلان هيامه بالجمال ، كأن يقول :

أروح ولى من نشوة الحب هزةٌ
ولست أبالى أن يقال طَروبُ
محبٌّ خليعٌ عاشقٌ متهتكٌ يَلذّ لقلبى كل ذا ويطيبُ
خلعتُ عذارى بل لبست خلاعتى
وصرّحتُ حتى لا يقال مريب
وفَى لىَ من أهوى وصرّح بالرضا
يموت بغيظ عاذلٌ ورقيب
فلا عيشَ إلا أن تُدار مُدامةٌ ولا أُنس إلا أن يزور حبيبُ
وإنى ليدعونى الهوى فأجيبُهُ وإنى ليَثنينى التقى فأنيب
فيا من يحبّ العفوَ إنىَ مذنبٌ ولا عفو إلا أن تكون ذنوب

وكأن يقول :

لحا اللهُ قلباً بات خِلواً من الهوى
وعيناً على ذكر الهوى ليس تذرفُ